قراءة نقدية

للفصل الأول: **الهوية وصورة الذات** والفصل السادس: **المواقف و القيم**

من تقرير مركز المرأة العربية للتدريب والبحوث " كوثر "

بعنوان: الفتاة العربية المراهقة : الواقع والافاق

إعداد : الدكتورة جيهان العمران
أستاذ علم النفس التربوي المشارك
قسم علم النفس – جامعة البحرين

في بداية حديثي اسمحوا لي أن أتوجه بالشكر والتقدير إلى مركز المرأة العربية للتدريب والبحوث(كوثر) في الجمهورية التونسية الشقيقة على على الجهد المبذول في التقرير بعنوان **الفتاة العربية المراهقة: الواقع والآفاق** ، والذي تم بدعم من عدة جهات عربية ودولية، و في مقدمتها الاتحاد الأوروبي وصندوق الأمم المتحدة للسكان، كما أتقدم بالشكر والتقدير إلى مركز المعلومات للمرأة والطفل على تنظيم هذه الندوة برعاية كريمة من لدن صاحبة السمو الشيخة سبيكة بنت ابراهيم آل خليفة قرينة حضرة صاحب الجلالة ملك مملكة البحرين المفدى رئيسة المجلس الأعلى للمرأة، وذلك لمناقشة قضايا المرأة، وبث الوعي بشئونها وشجونها، من أجل النهوض بها في شتى المجالات.

نرى في الدراسة الميدانية التي تضمنها التقرير حول واقع الفتاة المراهقة العربية محاولة جادة وجديدة للنفاذ إلى داخل عقول هؤلاء المراهقات ووجدانهن، للخروج بهن من عتمة الظلمة إلى وضح النهار، ومن دائرة التهميش، إلى بؤرة الاهتمام عن طريق استثارة الوعي بقضاياهن، والاستنارة بالفهم الصحيح لأوضاعهن. هذا الفهم وذاك الوعي المبنيان على أساس سليم من الدراسات والبحوث من أجل وضع السياسات والبرامج المناسبة للنهوض بهن.

وأشعر بالارتياح للتركيز على موضوع الفتاة العربية المراهقة في هذا التقرير، فهو في غاية الأهمية، **لأن هذه الفتاة بالذات** تعاني من صعوبات مضاعفة متعددة الاتجاهات لعدة أسباب: أولا لكونها أنثى ،وثانيا لكونها **مراهقة**، وثالثا لكونها **عربية**، والان بات من الضروري أن نضيف بعدا رابعا وهو كونها **مسلمة**،لأنها أصبحت تعاني من تأزم وصراع في العلاقة ليس مع ذاتها، ومع الآخر القريب فقط، بل ومع الأخر الغريب أيضا.

اولا. كونها فتاة انثى يجعلها في موقع لا تحسد عليه لأنها تعيش في مجتمع أبوي ذكوري. وعلى الرغم من أن حظها قد تحسن بالنسبة لفرص التعليم والعمل ،إلا أن النظرة إليها مازالت مشوبة بثلاثية التمييز والتهميش والدونية، ولازال حقها في المشاركة العامة والسياسية حلما صعب المنال في بعض البلدان العربية.

علاوة على ذلك فإننا ما زلنا نرى ممارسات تتعلق باضطهاد الأنثى في بعض البلدان العربية وخاصة المناطق الفقيرة والريفية والتي تعيش ظروفا معيشية صعبة، وما فتئنا نسمع ونحن في القرن الحادي والعشرين عن ختان الفتيات، والزواج المبكر، والحرمان من التعليم، والتحرش الجنسي، والعنف الأسري. كما ورد في هذا التقرير.

وهذه الأنثى ما زالت حبيسة الجدران ليس بسبب العادات والتقاليد البالية المفروضة عليها من الخارج فقط ، بل بسبب قيود ذاتية نابعة من الداخل أيضا، كما كشفت برأيي هذه الدراسة القيمة من خلال تحليل المقابلات التي تمت.

ثانيا. كونها مراهقة يجعلها تعاني في هذه المرحلة بالذات- شأنها شأن بقية المراهقين الذين ولجوا مرحلة المراهقة- من أزمة تحديد الهوية كما وصفها عالم النفس اريكسون ، فهي تشعر بالضياع واللاانتماء في رحلتها نحو اكتشاف الذات، ويكون وضعها كما وصفه عالم النفس ليفن أنه كالشخص الهامشي الذي يشعر باللاانتماء إلى مجتمعه لا أحد يريده، أو كالمسافر على الحدود بين بلدين ترفضه كل منهما، لأنه فقد جواز سفره. والمراهقة كذلك تعيش في عالم مجهول في مرحلة المراهقة بين مرحلتين لا تنتمي إلى أي منهما ، فقد ودعت مرحلة الطفولة بلاعودة، ولكنها لا يسمح لها بدخول مرحلة الرشد لأنها لا تمتلك مؤهلات الراشدين، ولا تفي بشروطهم، وفي مقدمتها اكمال التعليم والحصول على عمل، والاستقلالية الاقتصادية والشخصية. لذا فهي في مشروعها الوجودي تلجأ الى تأكيد ذاتها الضائعة فتتبع مبدأ " أتمرد إذن أنا موجودة" مما يوقعها في مازق ومزالق عديدة.

ثالثا . وكونها عربية يجعلها تنتمي إلى مجتمع تقليدي يواجه عددا من التحديات التكنولوجية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. فعلى الصعيد التكنولوجي يرى العديد أن المجتمع العربي قد وقع في فخ العولمة، يسعى جاهدا لأن يكون على مستوى المنافسة العصرية، في عالم رقمي باتت فيه الغلبة للأسرع ، هذا العالم الجديد الغريب الذي يفهم الأرقام، ولكنه لا يفهم الإنسان. وعلى الصعيد السياسي نراه يعيش عدة حروب طاحنة، وأصعب منها إحساسه بالقهر والذل والهوان، تمكن الداء الصهيوني منه، فشل جسمه، وأعاق حركته، وأخذ يصرخ حتى بح صوته لمدة تزيد عن نصف قرن من الزمان، وهويشجب ويستنكر ويستجير، ولكن لامن يسمع ولامن يستجيب، فقد تم تشييع الضمير العالمي منذ أمد بعيد. ثم جاءت أحداث الحادي عشرمن سبتمبر، وبعدها محنة العراق، فزادت الأوضاع تأزما، وانتشر عصاب عالمي، سموه "عرب فوبيا" و"أسلام فوبيا"، حيث غدا العرب والمسلمون على قائمة الخوف والارهاب في مسلسل الرعب الأمريكي. وعلى الصعيد الاجتماعي تعيش الفتاة العربية ضمن مؤثرات أسرية ومجتمعية واعلامية تكرس دورها التقليدي وخاصة في المناطق الريفية والفقيرة والتي يخيم عليها الجهل والامية، حيث يمجد تفوق الذكور، ويفرض عليها أن تظل قابعة في بيتها تنتظر

البطل المنقذ لينقلها إلى عش الزوجية، فيكون وضعها فيه كالمستجير من الرمضاء بالنار.

في هذا الجو النفسي من جهة والسياسي والاقتصادي والاجتماعي من جهة أخرى تعيش الفتاة المراهقة العربية ،أفليست هي جديرة بالدراسة والاهتمام، وخاصة أن الدراسات حول هذه الفئة نادرة وقليلة.

لا بد وأن أضيف أن هذا التقرير الهام يعكس وجهة نظر تعبر عن احدى الصور الشائعة للمراهقة ومعتقداتها ومكنوناتها وهمومها ومشكلاتها. ولكنها تعبر عن جزء من الحقيقة، وليس الحقيقة بكاملها، اذ أن هناك صورا مغايرة، وأبعادا أخرى تختلف تماما عما برز في هذه الصورة النمطية التي تحاول ان تبرز صورة للمراهق تنسجم مع التحبيذ الاجتماعي، صورة مثالية لارضاء الكبار. ولا سيما أن هذا التقرير اعتمد على المقابلات الشخصية وجها لوجه بين الفاحص والمفحوص، وقد نجد حتى نكون منصفين حالات مختلفة تماما لدى الفتيات اللواتي ينتمين إلى فئات أكثر حظا في الناحية الاقتصادية والتعليمية والثقافية. ولكن هذه الفئات هي حالات فردية تشكل وضعا استثنائيا، وليس القاعدة.

ويجدر التنويه هنا إلى أن مضمون التقرير تناول كلا الجنسين ذكورا واناثا ، ولكن العنوان اقتصر على ذكر الفتاة العربية المراهقة. وتم تبرير ذلك بأنه يستحسن عدم الفصل بين الجنسين لئلا تتحول المراهقات إلى موضوع بحثي خاص لاسيما أن التحديدات في هذه السن متكاملة، وهذا يجعلني أستشهد في تعقيبي بأراء من كلا الجنسين من المراهقين.

في محاولة متواضعة لقراءة نقدية للفصل الأول والأخير من هذا البحث سوف أبدأ أولا بالتطرق إلى المنهجية العلمية للبحث عموما، ثم أعرج على بعض القضايا الهامة في الفصل الأول ثم الفصل السادس وأتناولهما بالتعليق والنقد، وسوف أشير إلى القضايا المحورية التي تم اختيارها من الفصلين بخط غامق تحته خط للتمييز بينها وبين تعليقي عليها، كما أطلقت بعض العناوين الجديدة على الموضوعات التي اخترتها من الدراسة، للتأكيد على المعاني التي أود أن أبرزها في تعقيبي.

أولا . منهجية الدراسة الميدانية

بالنسبة لمنهجية الدراسة الميدانية عموما فقد اعتمدت على تحليل مضمون مقابلات عدد من المراهقين والمراهقات بلغ حوالي عشرين فردا، ثلاث عشرة مراهقة، وسبعة مراهقين تتراوح أعمارهم ما بين 15 – 18 سنة، في سبعة بلدان عربية وهي: مصر ولبنان والبحرين وتونس والجزائر والمغرب واليمن. واستغرقت المقابلة من ساعة الى ساعتين. وحاولت الدراسة أن تتناول مختلف الشرائح بالنسبة

للانتماء المديني أو الريفي ، والطبقة الميسورة أو المتوسطة أو العاملة، والانتماء الحزبي والسياسي.وبالنسبة لمتابعة دراسة مهنية أو عمل.

ونظرا للعدد القليل من أفراد العينة في هذه الدراسة، نرى أنها **غير قادرة على التعميم**. فلا يمكن أن يعمم الباحث ظاهرة سلوكية أو معتقدات سائدة أو أراء تعبر عن فئة معينة بالاعتماد على رأي ثلاثة عشر فتاة وسبعة فتيان من كل بلد. ناهيك عن ذلك أن هذه العينة القليلة إذا كانت تمثل جميع ألوان الطيف الطبقي والثقافي والاقتصادي والحزبي والمديني والريفي كما ذكرنا سابقا فأن العدد الذي يمثل كل لون قد يكون اثنين أو ثلاثة فقط.

وهذا يشكل محدودية لهذا النوع من البحوث، والذي يمكن أن تتهم بأنها لا تتبع المنهج العلمي الكمي الذي يستخدم فيه الباحث عينات كبيرة بأسلوب عشوائي، لتكون ممثلة تمثيلا صادقا للمجتمع الاصلي دون تحيزه ، ثم يلجأ الى وضع فرضيات أو أسئلة علمية تحاول أن تفسر أي ظاهرة سلوكية أو نفسية قيد الدراسة . ثم يستخدم الاختبارات والمقاييس ، وبعدها يستخدم الاساليب الإحصائية المعروفة من اجل قبول الفرضيات أو رفضها.ومن ثم يخرج بالنتائج والتوصيات. لذا قد يقال أن نتائجه يمكن تعميمها على مجتمع الدراسة. أما الدراسة الحالية فا يمكن تعميم نتائجها بل تنطبق على الأفراد الذين شاركوا في هذه الدراسة فقط.

وبالنسبة للأسلوب الذي استخدم في البحث اعتمد على **إجراء المقابلات** فقط. وهذا الاسلوب على الرغم من أهميته، واستخدامه أيضا في البحث الكمي، إلا ان استخدامه بمفرده له محاذيره، لأن المقابلة وجها لوجه لا تضمن إجابات صادقة من قبل المفحوص، بل قد تتخذ منحى التحبيذ الاجتماعي، فيميل المفحوص إلى الاستجابة التي تنسجم مع توقعات المجتمع ، وتلاقي قبولا لدى الاخرين ، وخاصة في الموضوعات الحساسة التي تتعلق بالدين أو الجنس أو السياسة. كما أن الاستجابات قد تتأثر بذاتية الباحث وتحيزه ، الذي قد يؤثر عن طريق الايحاء بالاجابة المطلوبة، الذي قد يتم ولو بطريقة لا شعورية. على خلاف البحوث الكمية التي يلجأ فيها الباحث إلى مقاييس واختبارت نفسية، ولكنه يستخدم أساليب احصائية للتأكد من صدق وثبات اجابة المفحوص. ولا تعرف هوية المفحوص عندما يكون عدد أفراد العينة كبيرا مما يعطيه هامشا من الحرية للتعبير عن ارائه دون أن يتعرض للإحراج أمام الفاحص أثناء المقابلة. واستخدام الاختبارات الاسقاطية غير المباشرة تعتبر إحدى الاساليب التي تكشف عن اراء المفحوص وشخصيته ومعتقداته على المستوى اللا شعوري، حتى لو أراد إخفاء ذلك على المستوى الواعي.

على الجانب الآخر لا يمكن أن نغفل القيمة العلمية لأبحاث تحليل المضمون عن طريق المقابلات **للمعلومات التي تتميز بالثراء والغنى والتفصيلات** الذي تعجز الابحاث الكمية عن الوصول إليه. ناهيك عن ذلك **الأسلوب النقدي التحليلي**

للمقابلات الذي يسبر أغوار النفس البشرية بدقة متناهية، ويكشف عن شئونها وشجونها بعين ناقدة نافذة إلى الاعماق. والتي يعجز البحث الكمي عن القيام بها لأنه يتناول الظاهرة السلوكية أو النفسية بصورة سطحية جزئية وإن كان قادرا على التعميم.

وما أرنو اليه هنا بيان الاختلاف لا المفاضلة بين هذين المنهجين، والخيار متروك للباحث في اختيار الاسلوب الذي يناسبه، ويحقق أهداف بحثه، ولكن من المهم أن **نبين محاسن وحدود كل من هذين النوعين** من البحث الكمي والنوعي عندما نلجأ إلى أحدهما في تفسير السلوك الإنساني.

والان سوف أنتقل إلى التعقيب على أهم القضايا المطروحة في الفصلين الأول والأخير من هذه الدراسة

الفصل الاول: الهوية وصورة الذات

إن مسألة البحث عن الهوية، والاشتغال على الذات، كما سماها التقرير هي قضية محورية ومصيرية بالنسبة للمراهقة، وبرأيي أنه كما أن اللعب هو عمل الطفل فأن الاشتغال على الذات هو عمل المراهق، ومن مهامه الرئيسة نحو النضج، لينتقل من الوضع اللامنتمي بين عالمي الطفولة والرشد، إلى عالم يصبح فيه منتميا بهوية محددة. **ولقد كشف هذا الفصل النقاب عن قضايا بالغة الاهمية بالنسبة لهذا الموضوع. من أهم هذه الامور التالي:**

1. العجز عن صياغة خطاب عن الذات لدى المراهقين العرب.

لقد ذكر التقرير ان المراهق يجب أن يكون فاعلا في نموه الشخصي ويتعلم أن ينظر الى نفسه كذات متفردة لا تختزل في الصورة التي يصورها له المحيط. ولقد كشفت المقابلات ان المراهقين يلجأون الى الاخرين كمرجع اساسي في بناء صورة الذات ، وهم غير قادرين عن الاعتراف بعيوبهم، أو يلجأون الى التبرير للحفاظ على صورة ايجابية للذات، أو اللجوء إلى السخرية والضحك لمواجهة التناقض، أو الحديث بضمير الجمع الغائب : يقولون عني كذا وكذا.

وهذا باعتقادي ينسجم تماما مع آراء علماء النفس مثل اريكسون Erikson الذي كان أول من رأى أن تحديد الهوية هو أهم إنجاز في مرحلة المراهقة وخطوة حاسمة نحو الرشد، وأن تكوين الهوية يشمل تحديد القيم والأهداف في الحياة ، ويدفع المراهق نحو التزامات جديدة في كل من المجالات الجنسية والمهنية والأخلاقية والسياسية والدينية والعقائدية، وقال بأن المراهق يواجه أزمة هوية وهي مرحلة مؤقتة من الضياع واليأس يختبر فيها المراهق عدة خيارات قبل أن يلتزم بشكل جدي ونهائي

ببعض القيم والأهداف. والمراهق الذي لا يخوض هذه الأزمة مع كل مصاعبها لا يصل إلى النضج، لأنه يأخذ هويته جاهزة ومحددة سلفا من الكبار. واعتقد بأنه كلما أدرك المراهق اختلافه وتمايزه عن الآخرين، وكلما أدرك نقاط قوته وعيوبه، توصل بنجاح إلى بناء ذاته، وكلما فشل في تعريف ذاته اعتمد على الآخرين في معرفتها وتحديدها. والسؤال المطروح هنا لماذا يا ترى نرى عجزا لدى مراهقينا في تحديد ذواتهم؟ لا بد وأن ننظر إلى أساليب التنشئة الأسرية التي تعتبر أن المراهق هو امتداد لذات الكبار، والتي تحرمه من فرض التعبير عن الرأي، والمشاركة في اتخاذ القرارات، وتلجأ إلى تهميش دوره في البيت والمدرسة والمجتمع، وربما كان الاسلوب التسلطي للابوين المتوجه نحو العقاب، وكون العلاقات عمودية بين جيل الاباء والابناء، حيث تكون السلطة بيد الابوين عادة، هما اللذان يختاران لأبنائهما ما يحبانه هما ، ليس فقط من طعام وملبس وشراب، بل والمهنة التي يريدانها لهم، والزوجة أو الزوج. ناهيكم عن ذلك تدخلهم في كل صغيرة وكبيرة في حياة أبنائهم، فكيف لهؤلاء المراهقين أن يتمكنوا من بناء ذواتهم، والاشتغال عليها، فالإجابات كلها جاهزة، وهم يرون العالم من خلال عدسة الكبار فقط.

كما عبر المراهقون في هذه الدراسة عن بعض السلوكيات مثل الميل اللى العصبية والاندفاعية والشك والتردد والصعوبة في اتخاذ القرارات والحساسية الزائدة لدى الفتيات والرغبة في البكاء. والميل الى الامتلاك والغيرة ، والتناقض في المشاعر.

وهذا يذكرني بنتائج مماثلة في بعض الدراسات الكمية مثل البحث قمت به في جامعة البحرين منذ بضع سنوات لدراسة مشكلات التوافق النفسي لدى عينة قوامها 432 ذكرا وأنثى من الشباب الجامعي . وبينت هذه الدراسة التي أجريت على أن أهم مشكلات هؤلاء المراهقين مشكلات عدم القدرة على اتخاذ القرار، والقلق، وشرود الذهن، وضعف الاتزان الانفعالي، وضعف الثقة بالنفس، والحساسية الزائدة ، والخوف من الفشل.

وفي دراسة أخرى للدكتور سيد صبحي (2000) بينت أن أهم المشكلات التي يعاني منها فئة الشباب في مصر هي نقص الخدمات العامة، مثل الخدمات الترفيهية والمواصلات، والخدمات الصحية والاجتماعية والنفسية، ثم عدم الشعور بالأمن النفسي، والخوف من المستقبل، وعدم قدرة التعليم على الوفاء بالاحتياجات المادية، وعدم القدرة على الزواج لأسباب مادية، وازدياد أعباء المعيشة، وعدم توجيه طاقاتهم. وكذلك بينت العديد من الدراسات على البيئة العربية على المراهقين والمراهقات في دولة الامارات العربية ودولة الكويت والعراق، وبعض البلدان العربية الأخرى كانت نتائجها متشابهة مع الدراسة بين أيدينا.

لذا يبدو أن هذه المشكلات طبيعية ومن خصائص مرحلة المراهقة بالذات، يمكن تفسيرها بسبب التغيرات الجسمية السريعة للمراهقين والتوتر النفسي الشديد الذي

يصاحبها. وحيرة المراهق وقلقة بسبب عدم تحديده لذاته، ولكن ما يجدر قوله هو أن هذه المشكلات السلوكية تكون أشد تأثيرا على المراهقة التي تعيش في جو من التزمت الأسرى، والبعد النفسي بين الاباء والابناء ، وكذلك الجو الذي لا يشبع حاجاتها، ويعمل على تأكيدها لذاتها، مما يجعل مرحلة المراهقة تتحول إلى أزمة حقيقية، تترك بصماتها على شخصية المراهقة حتى نهاية العمر، وليس مرحلة مؤقتة. لذامن المهم بمكان الاهتمام بتنظيم برامج الإرشاد النفسي والمهني للمراهقين والشباب، وإتاحة الفرصة لهم للتنفيس عن طاقاتهم المتدفقة في النشاطات المفيدة ، لئلا يوجهونها نحو مجالات ضارة، واستغلال أوقات فراغهم، وتنمية هواياتهم، والاهتمام بالمراكز الشبابية الثقافية والرياضية، والمعسكرات والنوادي العلمية، وخاصة للمراهقات الإناث اللواتي يحزن على نصيب ضئيل من هذه الاهتمامات. كما تبرز الحاجة إلى توعية الاباء وتدريبهم على الوالدية الفعالة للتعامل الصحيح مع مشكلات أبنائهم وبناتهم المراهقين والمراهقات.

2. المراهقة بين مرجعية الأسرة و مرجعية الأقران

قضية هامة أخرى تطرقت إليها الدراسة، وهي مسألة مرجعية الأسرة مقابل مرجعية الأقران **في الجزء المتعلق بموضوع الذات والاخرون وسيرورات المقارنة الاجتماعية، حيث تبين أن المراهقين والمراهقات في عينة هذه الدراسة الميدانية يستخدمون الاسرة كمرجعية تارة ، والأقران كمرجعية تارة اخرى. وأن المراهقين الذكور أكثر ميلا الى اللجوء لجماعة الاقران كمرجعية خلافا للمراهقات اللواتي يلجأن إلى الاسرة كمرجعية. كما أن هناك مراهقين ومراهقات لا يمثل الاخرين مرجعية لهم بسبب حكمهم الخاطىء أو صعوبة نفاذهم إلى حقيقة المراهقين المتناقضة بين السلوك الخارجي والباطني."**

لا بد من أن ألجأ إلى تفسير هذه الحقيقة النفسية الهامة التي توصلت اليها هذه الدراسة ، وشرح بعض أبعادها وتأثيراتها بالاستناد إلى نتائج بعض الدراسات التي كشفت عن أهمية اتخاذ مرجعية الاقران أو الاسرة وعلاقتها بسلوك المراهقين.

تثبت بعض الدراسات أن المراهقين الذين يعتمدون على الأقران كمرجعية يكونون أكثر ميلا للانحرافات السلوكية بينما المراهقون الذين يستخدمون الأسرة كمرجعية يكونون اقل عرضة للمشكلات السلوكية والأخلاقية، وأكثر التزاما بالمعايير الاجتماعية للسلوك.

ولكن يبدو أنه من الوجهة النفسية مرجعية الرفاق في هذه المرحلة هي حاجة نفسية في مرحلة المراهقة المبكرة بالذات، يجب أن يلبيها المراهقون والمراهقات وأن بدت أكثر أهمية لدى الذكور في مجتمعاتنا. فيذكر عالم النفس الكيند Elkind أن المراهقين والمراهقات في مرحلة المراهقة المبكرة يواجهون أزمة نفسية سماها

بأزمة الانتماء إلى جماعة الأقران مقابل الشعور بالاغتراب ، أي أنه إن لم يكن هناك جماعة أصدقاء ينتمي إليها المراهق وبشعر بالقبول بينها، فإنها سوف يشعر بالاغتراب النفسي ، ويعاني من مشكلات عدم توافق سلوكي. وهذا يفسر لنا اهتمام المراهقين بشلل جماعة الرفاق،الذين تجمعهم بهم ثقافة واحدة قوامها اتباع نفس الملابس من حيث الموضة والألوان، وتسريحة الشعر، ونوع الموسيقى الصاخبة في معظم الأحوال، وبعض الاهتمامات الخاصة الأخرى. ومن هنا تتضح أهمية اختيار جماعة الرفاق، والابتعاد على رفاق السوء في هذه المرحلة بالذات، وأهمية وضع الحدود في الاسرة، أي القوانين الاسرية التي يتفق عليها الاباء والابناء معا، كموافقة الاسرة على نوعية الرفاق (من هو صديقك)، والاماكن التي يرتادونها معا (إلى أين تذهبان)، والأوقات المسموح بها أن يتأخر خارج البيت (متى ستعود). والتي إن خالفها المراهقون يتحملون النتائج المنطقية، وهي خسارة بعض الامتيازات التي يتمتعون بها. وليس العقاب أو الاهانة أو التحقير. وطبعا هذه الحدود تختلف بين الذكور والاناث، كما أنها تختلف من ثقافة إلى أخرى، بل تختلف داخل الثقافة نفسها بين موقف متشدد وموقف متحرر.

كما أود أن أضيف أيضا إلى أن **طبيعة الموضوع** الذي يتخذ فيه المراهقون قرارتهم يلعب دورا هاما في هذه المرجعية، فتكون مرجعيتهم الاسرة في الموضوعات الحساسة والمصيرية، كالدين والسياسة والزواج. وتكون مرجعيتهم جماعة الرفاق في الموضوعات الخاصة بثقافة المراهقين ، كنوع الموسيقى وتسريحة الشعر، والملبس، ومشاهدة الأفلام السينمائية.

3. الصورة السلبية لصورة الانثى والخوف من النجاح.

من خلال تحليل المقابلات لدى الذكور والاناث يبدو أن هناك اختلافا في وصف الذات أوصورة الذات لدى كل منهما، فبينت هذه الدراسة أن الانثى أميل الى رهافة الحس والاندفاعية والتوتر مثل "هالة" من الجزائر التي تصف نفسها بأنها سيئة الطباع، وتصيح عاليا، و" فهيمة" من اليمن و" نادية" من الجزائر التي عبرت كل منهما علىرقة الاحساس والميل إلى البكاء . ونرى في الوقت نفسه لدى فاروق في مصر النزعة إلى السيطرة. وبررت الدراسة أن صفات الأنا عند المراهقة تتأثر بالتمييز بين الجنسين في التنشئة الاجتماعية.

اتفقت بعض نتائج الدراسات الميدانية الكمية مع هذه النتيجة ففي دراستي على الشباب الجامعي بيت الدراسة أن الاناث البحرينيات المراهقات في المرحلة الجامعية أكثر معاناة من مشكلات التوافق النفسي من الذكور البحرينيين، وخاصة بالنسبة لمشكلة ضعف الاتزان الانفعالي، وضعف الثقة بالنفس، والحساسية الزائدة، والخوف من الفشل، والخوف من ارتكاب الأخطاء. وكذلك العديد من الدراسات في الدول العربية، والتي أتت بنتائج مماثلة. وبررت بعض هذه الدراسات ان هذا الاختلاف يعزى ايضا ليس الى أسباب بيولوجية، وإنما الى اعتبارات ثقافية.

و على وجه العموم يبدو أن مفهوم الذات في مرحلة المراهقة المبكرة يكون أكثر سلبية عند للأنثى . فقد أثبتت بعض الدراسات التي أجرتها روذنبيرغ أن هناك انخفاضا نسبيا في تقدير الذات لدى الفتاة المراهقة عندما تتنقل إلى المرحلة الإعدادية، وأن هذا الانخفاض يرتبط بتدني في مستوى التحصيل الدراسي.

وهذا الانتقال يتزامن مع بداية مرحلة المراهقة وخاصة في هذه المرحلة عندما تشعر الانثى بالخجل من مظاهر انوثتها في مجتمعنا فتحاول أخفاءها لأن الانوثة عيب ومعناها مزيدا من القيود على الفتاة خوفا على عفتها، أما بالنسبة للذكر فمظاهر الذكورة المبكرة هي مصدر فخر واعتزاز، فتزداد شعبية المراهق في هذه المرحلة، وخاصة في أسرته الذين ينظرون إليه بالفخر والاعتزاز كمصدر أمان لمستقبل الاسرة.

ومن الاسباب الأخرى التي فسرها علماء النفس لتدني مفهوم الذات في بداية سن المراهقة ، كما بينت دراسة روذنبرغ أن الفتاة المراهقة عندما تكبر ترى أن النساء يتولين مناصب أقل من الرجال في المجتمع مما يجعلها تعتقد أن دورها أقل أهمية من دور الذكر وأنهن أقل شأنا منهم . والفتاة الانثى تستبطن الدور الاجتماعي الاقل تقديرا من قبل المجتمع مما يؤثر سلبا على مفهوم الذات لديها. وفي دراسة أخرى أجرتها هورنر توصلت إلى أن الأنثى منذ نشأتها الاولى تتعلم أن النجاح لا يتلاءم مع الدور الانثوي، والنجاح أحيانا يسبب عدم إحساس بعدم الرضا إذا تطلب نوعا من المنافسة أو السلوك العدواني الذي لا يتلاءم مع الطبيعة الأنثوية فينتابها الخوف والقلق نتيجة ان نجاحها قد يصاحبه رفض اجتماعي، خوفا من وصف المجتمع لها بالسلوك الذكري.

كما تطرقت دراسة روذنبرغ إلى ظهور ما يسمى بظاهرة الأنثى الطيبة والمثالية التي تتمثل الرسائل والتوقعات لتكون الفتاة الجميلة اللطيفة المثالية الطيبة المطيعة والتي ليس لديها مشاعر سيئة أو خاطئة. وتحاول أن تصل إلى هذا النموذج غير الواقعي للسلوك الأنثوي. وتبدأ الفتاة تقيم ذاتها في ضوء اراء الاخرين، وتكبت مشاعر الغضب. وهذا يؤدي إلى اضطرابات نفسية وسلوكية مثل الاكتئاب التي تصاب به الإناث بقدر ضعف الذكر، وحوادث الانتحار التي تصل عادة الى أربعة أضعاف.

وفي تراثنا الشعبي شواهد على تدني مكانة الأنثى في جميع المجتمعات العربية. وفي دراسة قامت بها ناهد رمزي(1999) بدراسة لبعض الأمثال الشعبية التي تعكس مكانة المرأة. وعكست هذه الأمثال الشعبية الصورة السلبية للانثى، فبينت أنها تنظر إلى المرأة وكأنها لا تستمد كيانها أو هويتها إلا من خلال الرجل مهما قل شأنه.ونجد على سبيل المثال بعض هذه الأمثال التي تذهب إلى القول::" ظل راجل ولا ظل

حيطة" ،أو " أقل الرجال يغني النساء". وكذلك فأن إنجاب البنت يقابل بعدم الارتياح في الاوساط الريفية والشعبية. وأظهرت الدراسة انحفاض قيمة الانوثة في المجتمع المصري،إذ وافق أفراد العينة بنسبة عالية على المثل الشعبي القائل: "أم البنات حزينة للمات"، ومثل شعبي أخر الذي يقول" موت البنت سترة" ، و"أبو البنات مرزوق"، حيث يشير هذا المعتقد الشعبي أن الله يعوض الاب الذي رزق بنات بأن يزيد من رزقه. هذه الصورة السلبية في التراث تؤثر سلبا على صورة الانثى لذاتها منذ الصغر. والأمثال الشعبية الاخرى في بقية المجتمعات العربية تعكس نفس الصورة السلبية للأنثى.

أما عن تأثير وسائل الاعلام فحدث ولاحرج، فهي تصور الانثى بأنها الضحية المغلوبة على أمرها، أو سبب الشر والفتنه، أو رمز للجنس والإغراء، وذلك عن طريق الأفلام السينمائية والمسلسلات العربية. إن دور وسائل الاعلام يجب أن يكون ليس تكريس واقع قاتم ، وإنما تغيير لهذا الواقع عن طريق عرض نماذج وصور ايجابية للمرأة العربية، وهي عديدة، وبعض هذه الصور: المحامية أو النائبة التي تدافع عن حقوق الناس ، والطبيبة التي تشفي، والرئيسة التي تقود بلادها نحو التطور ، والسفيرة التي تمثل بلادها أحسن تمثيل، والمناضلة التي تدافع عن أرضها، والشرطية التي تلاحق اللصوص، والبطلة القوية المنقذة في نهاية الفيلم أو الحلقة الدرامية.

وقصة الأنثى مع المناهج التعليمية ليست بأفضل حالا، فهي الطيبة المهذبة المطيعة، وهو الذكي المنجز، هي داخل البيت تربي الأبناء وتطهو الطعام، وهو خارجه يعمل كسبا للرزق. على الرغم من ان الدراسات في بعض البلدان العربية مثل البحرين تشير إلى أن نسبة الاناث اللاتي يقمن بإعالة أسرهن تفوق نسبة الذكور.

هذا يعني أننا يجب أن نعمل جاهدين في سياساتنا المتعلقة بتحسين أوضاع المرأة العربية كي نجد البرامج والاليات التي تحسن من صورة المرأة لذاتها، ومن صورة الرجل للمرأة، عن طريق إعداد المناهج الخالية من التمييز القائم على أساس الجندر أو النوع . وتوجيه وسائل الاعلام لتلعب دورا فاعلا في تغيير الصورة السلبية للأنثى، في الأفلام السينمائية، والدراما التلفزيونية. وخاصة أن المراهقين والمراهقات في هذه المرحلة بالذات لا يتأثرن بالنموذج والقدوة فقط بل يبحثن عنه بحثا في عملية تحديد الهوية.

4. اسرار المراهقين بين احترام الخصوصية والخطوط الحمراء.

قضية هامة أخرى عبرت عنها المراهقات في الدراسة التي بين أيدينا، وهي مدى انزعاجهن بسبب عدم احترام خصوصياتهن من قبل أسرهن، كما تقول تالة من لبنان" أنها تريد أن تكون لها أسرار خاصة ولكنها لا تنجح في ذلك ، خلافا لرفيق

الذي نجح في تكريس حقه في الحياة الخاصة فقال" ليس لأحد الحق في أخذ قميصي أوأسطوانتي دون إذن مني".

وأعتقد أن هذا الموضوع هام ومهمش في عالمنا العربي، فنحن ننظر إلى أبنائنا كامتداد لذواتنا، وفي بعض الاحيان كأنهم ملكنا، لا نحترم مشاعرهم، ولا نعترف بخصوصياتهم.ونعامل الواحد منهم كشيء وليس كشخص. فهناك عالم المراهقة وثقافة المراهقة، يجب أن نعطيهم هامشا من الحرية التي يستطيعون التحرك خلالها، ونتفق معا على الخطوط الحمراء التي لا يستطيعون تجاوزها، لأن هذه الحرية موجهة وليست مطلقة، وخاصة بالنسبة للأمور التي تتعلق بتجاوزات في مواضيع حساسة مصيرية. كالتي تتعلق بالدين أو الجنس او السياسة. وقد تختلف هذه القوانين أو الخطوط الحمراء من أسرة إلى أخرى بالنسبة لدرجة الانفتاح والتشدد. ولكن عندما يتم الاتفاق عليها من قبل الجميع يجب احترامها واتباعها ومن يخالفها يتحمل مسئولية العواقب المنطقية التي تنجم عن عدم الالتزام بها. ويظل مبدأ الصراحة والحوار والثقة هو الأساس في هذه المعاملة.

5. تفرد المراهقة "أنا مختلف إذن أنا موجود"

وفي موضع اخر أبدت بعض المراهقات عن الرغبة العارمة في الاختلاف، الاختلاف هو سنة المراهق وديدنه، فهو يشعر بالاختلاف لدرجة كبيرة كما عبرت مروة من الجزائر بقولها " لا أريد أن ألبس مثل الاخرين، وغالية من الجزائر التي قالت: أفعل ما في وسعي كي لا أشبه الاخرين في الهندام أو غيره. ورفيف من لبنان التي قالت: أشعر بأني مختلفة اختلافا كبيرا عن الاخرين إلى درجة التعاطف مع المعوقين والمجانين.

وهذا يفسر حالات العناد والتمرد والعصيان التي يظهرها المراهق في هذه المرحلة، وهي ليست موجهة ضد الاسرة أو الاخرين ، وأنما هي طريقه نحو بناء ذاته وتأكيد كيانه. وهنا يتبني أهمية معاملة المراهق أساس من فهم خصائص نموه في هذه المرحلة، وأن هذا العناد هو محاولة لاثبات الذات واكتشاف هويته المجهولة التي يبحث عنها. لذا فأنه من الأهمية بمكان أن نساعده على تأكيد ذاته بوسائل ايجابية كحسن الاصغاء، ومشاركته في اتخاذ القرارات، واحترام آرائه، حتى لا يقع الآباء والأبناء في حلقة مفرغة من الخلافات والمشاجرات، وكذلك حتى لا يتجه المراهق إلى وسائل سلبية لتأكيد ذاته، كاللجوء إلى التدخين، أو تعاطي المخدرات، أو العلاقات المحرمة.

6. المظهر الجسمي و بناء الذات : الذكور يفضلونها جميلة ولو كانت بلهاء

أبدت بعض المراهقات في هذه الدراسة عن عدم الرضا عن مظهرهن بسبب البدانة والمظهر غير المقبول. كما عبرت المراهقة "ريم" من لبنان التي تشعر بالخجل لأنها بدينة، والمراهقة " منى" من الجزائر التي يعايرها أقرانها بأنها تشبه البقرة.

أود أن أضيف إلى أن عدم الرضا عن الذات الجسمية ينجم عنه مشكلات سلوكية لدى الفتاة المراهقة، وأثبتت بعض الدراسات أن الفتيات أقل رضا عن مظهرهن الخارجي من الذكور وأن الصورة السلبية للذات ينجم عن تدني في تقدير الذات ومشكلات سلوكية، كالقلق والاكتئاب.

وتبين العديد من الدراسات أن مرض الشره العصابي الذي تعاني منه الفتيات عادة ، بحيث تقبل على الطعام بشراهة وبشكل مرضي ، ثم ترغم نفسها على التقيؤ، وبتكرار هذا السلوك بشكل ملح دون أن تستطيع أن تقاومه قد يؤدي بها إلى الموت. وتذكر هذه الدراسات أن صورة الأنثى عبر وسائل الإعلام بأن الأنثى النحيلة رشيقة القوام هي الصورة المثلى التي تحاول أن تقلدها. والغريب في الامر أن العديد من هؤلاء الفتيات هن نحيلات أصلا ، ولكن يعتقدن جازمات بأنهن بدينات.

وكان موقف الفتيان التقليل من أهمية الشكل والجمال يقابله تشدد أكثر على أهمية صفات الجمال لدى الفتاة عندما يتعلق الموضوع بمواصفات الشريكة، كما صرح المراهق "محمد" من مصر بأن شكله هو أخر اهتماماته يقابله -كما ذكر التقرير- تشديد على أهمية الجمال للفتاة بالنسبة للذكور وخاصة عندما يتعلق الموضوع بشريكة العمر.

وفي دراسة ناهد رمزي(1999) على عينة من المراهقين والمراهقات بينت أن تقييم الانثى يتم على أساس جمالها الخارجي ، وخاصة لدى عينة الريف ، والعينات ذات المستوى التعليمي المرتفع. طرحت أكثر من مرة السؤال على طلابي وطالباتي في الجامعة في اختيار شريك الحياة فكان الجمال ضمن الأولويات بالنسبة للطلبة، وأخلاق الشاب ومكانة أسرته من أهم صفات شريك الحياة بالنسبة للفتيات، وطبعا كان الدين في المقام الأول لكلا الطرفين. أين صفات المرأة الأخرى، كالعلم والذكاء وقوة الشخصية والاستقلالية؟لا شك أنها في المقام الأخير.

لا أدري ربما الرجل العربي سوف يركض لاهثا وراء هذا النوع من النساء في العصر الحالي لأنه النموذج المثالي ولكن على شرط أن تكون مطيعة وجميلة حتى لوكانت بلهاء، ويخشى المرأة الواعية بحقوقها المثقفة التي تؤكد ذاتها.

ولا بد أن أشير أيضا تعليقا على هذا الموضوع إلى تأثير وسائل الإعلام التي تركز على قيمة الجمال المظهر الجذاب، وأساليب تخفيف الوزن، وعمليات التجميل ، واستغلال الفتاة الجميلة في الإعلانات التجارية كسلعة تتباهى بها والتي يتم إقحامها في موضوعات لا تمت للفتاة الجميلة بأية صلة ليس في العطور وادوات الاستحمام ،حتى في مجال الترويج للسيارات والمأكولات وأدوات البناء، وكأن كيان المرأة ووجودها اختزل الى قوام جميل، ووجه ملون بالأصباغ والمساحيق. إن القنوات التلفزيونية تعكس المظهر الجذاب، وإظهار المفاتن، وكأنه السلاح الوحيد للمرأة، وتنسى مخاطبة عقل المرأة، وأنه مفتاح الشخصية الناجحة في الحياة.

الفصل السادس : المواقف والقيم

أما بالنسبة للفصل المتعلق بالقيم والذي يتناول **أربع محاور رئيسة** وهي وضع المرأة والأدوار الاجتماعية للرجال والنساء، والموقف من الدين والحجاب، والموقف من السياسة ، ثم بعض الموضوعات المتفرقة الأخرى.

1. الموقف النمطي من وضع المرأة والأدوار الاجتماعية :الذكور أكثر تشددا

يبدو من هذه الدراسة أن النظرة النمطية لازالت سائدة لدى المراهقين والمراهقات عينة الدراسة، هذه النظرة المستندة إلى مرجعية بيولوجية. كما قالت" فاطمة" : "على الولد أن يحمي البنت وأن يكون شهما وشجاعا" . والقوة من سمات الذكر والضعف والرقة والعاطفة من سمات الانثى ومكانها البيت والمسئوليات الاسرية عليها ومسئوليات العمل والكسب من مهام الرجل. وكما قالت "روان"" المرأة اضعف من الرجل ولا تستطيع أن تحل محله". وتباينت الاراء حول حقوق المرأة بين اعتراض وعدم رضى على وضع المرأة الحالى ورفض التمييز والدعوة إلى المساواة ألى موقف محافظ متشدد يعتبران وضع المراة هو ما يجب أن يكون عليه لاعتبارات دينية.

وكان موقف المراهقين أكثر تشددا من موقف المراهقات، وكان هناك اختلافات بين الدول العربية بين متشدد ومؤيد. وداحل البلد الواحد بين مدينة وريف، وكان المتغير الدينى السياسى من أهم المتغيرات التى أظهر أصحابها اتجاها محافظا متشددا.

يمكن استشفاف ملامح التشدد تنطبق بشكل بارز لدى الذكور المنتمين الى احزاب دينية سياسية، والذين يحملون قناعات ايديولوجيه يمثلها مصطفى " المرأة التى خرجت عن حدها هى التى تعمل خارج البيت أو التى ترتدي بطريقة غير لائقة" . وتمثل المراهقة" ريا" القطب الاخر الاكثر تحررا بقولها " صدمة الحياة عندى

تتمثل في المراة التي لاتغادر البيت وتتحجب، ولا تنتظر سوى قدوم زوجها لكي تنزع حذاءه وتغسل رجليه"

يبدو من هذه الاراء المتطرفة أن أصحابها لا يدركون حقيقة العلاقة كما يجب أن تكون بين الرجل والمرأة ، تلك العلاقة القائمة على الشراكة الحقيقية، وخاصة بعد أن تغير دور المرأة وأصبحت عضوا مشاركا في تنمية مجتمعها تعمل جنبا الى جنب مع الرجل، وبدات تتقلد بعض المناصب العليا، وتساهم في الشأن العام. ولكن تشير الدراسات إلى أنه على الرغم من تغير دور المرأة النسبي إلا أن دور الرجل لم يتغير عن السابق، مما ينجم عنه ضغوطا متعددة على المرأة بسبب تعدد الأدوار، إن نظرة المجتمع إلى المرأة لا زالت نمطية. ويعود ذلك إلى أساليب التنشئة الاجتماعية التي تعمل على الفصل بين الأدوار، ووسائل الاعلام والمناهج التعليمية التي تكرس صورة المرأة السلبية في المجتمع، وتعزز التمييز على أساس النوع الاجتماعي أو الجندر، كما ذكرنا سابقا.

2. المراهقة الريفية الفقيرة: هي السجين والسجان

وهناك ملمح هام وهو تعبير المراهقات عن أن أكثر الاطراف تضررا هي النساء الريفيات الفقيرات، اللواتي لا يعرفن القراءة والكتابة ويربين أولادهن وحدهن. وفي موضع اخر ذكر انهن مهمشات. وذلك في معظم الدول العربية مثل مصر والمغرب واليمن وحتى في لبنان. هنا اريد أن أؤكد أن الفتاة الأنثى الفقيرة هي الجزء الأضعف في الجسم المجتمعي ، والطرف الأكثر تعرضا لمشكلات التمييز والقهر والظلم. وهي الأحوج الى التمكين والرعاية، وخاصة أن آراءها من خلال هذه الدراسة هي الاكثر تشددا والأكثر تحفظا بخلاف فتاة المدينة المتعلمة التي كانت اكثر اعتراضا ازاء المساواة بين الرجل والمراة وقضايا حقوق المرأة. فيبدو أنها ليست اسيرة الفقر والجهل من خارج نفسها بسبب الظروف المعيشية والعادات والتقاليد، بل أنها تعاني من سجن داخلي كانت هي السجين والسجان بأن واحد، وبنت قناعات ومعتقدات لنفسها تكرس تخلفها وتهميشها في مجتمعها.

نحن بحاجة إلى وضع سياسات تنموية وتربوية مبينة على دراسات علمية لوضع برامج التدخل المناسبة. ومن اهم برامج التدخل يجب أن يكون تمكينها عن طريق توعيتها بحقوقها، وتقوية قدراتها الذاتية، عن طريق تعليمها وايجاد العمل المناسب لها، ومساعدتها على الاستقلالية والاعتماد على النفس، ومساعدتها على التعبير عن ذاتها، وبناء مفهوم ذات ايجابي . نحن بحاجة إلى التركيز على تمكين الفتاة الأنثى الفقيرة في الطبقات التي تعاني من ضغوط متعددة.وعلى رأسها الفقر والجهل والمرض. ولقد أثبتت الدراسات أن هذه البيئة منبت المشكلات النفسية والسلوكية، ومصدر الانحرافات الاخلاقية.

3. موقف المراهقين من حقوق المرأة: القانون ظالم ولكن للمساواة حدود

ويبدو أن هناك اتفاقا بين افراد العينة على الحقوق الاساسية للمراة كالتعليم والصحة والامن ورفض العنف، وانتشالها من الفقر، ولكن كان هناك اختلافا بالنسبة لحقوقها في المشاركة السياسية والعمل، حتى أن احدهم قال: المجال السياسي ليس مناسبا للمراة ، ولايمكن أن تكون عضوا في مجلس النواب. أما بالنسبة للحقوق المتعلقة بالاسرة والعلاقات الجنسية والاحوال الشخصية فكانت معظم الاراء تتخذ الموقف المتشدد. من الطبيعي أن يكون الموقف متشددا حيال العلاقات الجنسية قبل الزواج، والاستقلال عن الأسرة عند البلوغ. لأن هذه موضوعات خاصة جدا، ولكن حبذا لو لم يتم وضع هذه الموضوعات في خانة واحدة مع الحقوق المتعلقة بالاسرة والأحوال الشخصية لكون هذه الحقوق برأي أساسية ولاتنتمي إلى الدائرة الخاصة كما وصفها التقرير، كما أن ضمها مع تلك الموضوعات يقلل من أهميتها ومصداقيتها.

وأثار دهشتي ميل الاراء الى الموقف المحافظ في العديد من قضايا المساواة حتى في أكثر البلدان تقدما في القوانين بالنسبة لحقوق المرأة وهي **تونس فأصر معظمهم على أن هناك حدود للمساواة، وكما أشار التقرير أنه يبدو أن القانون والتشريع أكثر تقدما من الفهم السائد لقيم المساواة في المجتمع. وخاصة فيما يتعلق بالدائرة الخاصة من الحقوق.**

وعلى الرغم من اقتناع الجميع بأن القوانين منحازة للرجل ألا أن الذكور عبروا عن مخاوفهم من وعي المرأة بحقوقها والتحرك لنيلها، ربما لخوفه من أن يخسروا هيمنتهم وامتيازاتهم في عالم يعتبرونه عالمهم هم، والمرأة هي مواطن من الدرجة الثانية، **مثل المراهق "جاسم " من البحرين الذي اعترف بأن هناك ظلما واقعا على المرأة بسبب لعادات والتقاليد، ولكن يعتقد أن" المشكلة تبدأ عندما تعي النساء حقوقهن ، ويشرعن في التحرك والضغط للحصول عليها".**

وكان هناك رأي هام وهو أن الرجل الذي يتعرض للضغط خارج المنزل يمارس سلطته على زوجته داخل المنزل. لذا فان إصلاح وضع المرأة لا يكون الا بإصلاح وضع الرجل بل والمجتمع كل.

تناول التقرير استشفاف آراء المراهقات والمراهقين في موضوعات حساسة للغاية وهي موضوع الحجاب والدين والسياسة والحرب وبعض الموضوعات الأخرى كقيمة ا المال والسعادة والهجرة.

4. موقف المراهقين من موضوع الحجاب والدين : حجاب العقل هو المشكلة

بالنسبة لموضوع الحجاب أثار اهتمامي أمران : أولهما تغير وضع الحجاب من عادات اجتماعية كما عبر المراهقون في مصر الى الطابع السياسي الديني الثقافي. وإلى أن ارتداء الحجاب في بعض الحالات كان وراءه ضغط الصديقات أو الخطيب أكثر من ضغط الأهل ، وكذلك التاثيرالكبير الدعاة الإسلاميين من خلال وسائل الإعلام.

كما يشير التقرير إلى أن الانتماء المديني الريفي والاجتماعي الثقافي له أهمية في اتخاذ موقف مؤيد أو رافض للحجاب. وكانت المواقف متنوعة ما بين اعتبار الحجاب مسألة شخصية رافضا ان التحجب يساوي التدين أو الموقف المؤيد للحجاب لمبررات دينية باعتباره واجبا اسلاميا. والملفت للنظر أن على الرغم من اتفاق الجميع على الاحتشام والبعد عن التبرج عموما الا أنه كان هناك اختلافات على شكل الحجاب كما عبرت اقبال من اليمن بقولها علما بأنها متحجبة أنها تشعر عندما تمر امامها فتاة تلبس برقعا تشعر كانها بدون ثياب وتتمنى ان تكون مثلها ولوكانت غير مقتنعة تماما. فاذن المسألة أكثر تعقيدا لأن ليس لها نهاية ، والخطورة تكمن في أنه قد ينتهي وضع الأنثى في البيت ومنعها من الخروج تماما لأن كل ما يمت الى انوثتها بصلة يعتبر عورة وحرام كصوتها أو حتى وقع أقدامها.

ويبدو هنا أهمية وسائل الإعلام التي لعبت دورا كبيرا في انتشار الحجاب أن تعمل بالمقابل وبنفس الزخم على تكريس تعاليم الدين الإسلامي السمحة بأنه لا إكراه في الدين، وضرورة تقبل الرأي الآخر واحترامه، وأن الخالق لا المخلوق هو الذي يحاسب الناس على أعمالهم وأن العلاقة مباشرة بين الرب وعباده دون وسطاء من البشر. وأن التدين لا يساوي الحجاب، وضرورة الابتعاد عن التفكير الثنائي اما كافر أو مؤمن ، حرام وحلال الذي تدعو إليه بعض الأفكار المتطرفة التي برأيي لا تمت إلى الاسلام بصلة والتي تؤثر سلبا على بعض المراهقين والمراهقات مثل فتحية في تونس التي ترى أنه لا يمكنها أن تكون انتقائية في امور الدين اذ عليها أن تلتزم بكل تعاليمه، بما في ذلك طريقة اللباس لذا وجدت الحل في عدم الالتزام بالطقوس الاخرى من صوم وصلاة . وأن حجاب العقل هو المشكلة الحقيقة التي يجب أن نسعى جميعا لمحاربتها سواء كنا متحجبات أو غير متحجبات.
ويجب ابراز تسامح الدين الاسلامي وعدالته، وحرية الاختيار، عن طريق الخطاب العقلاني لأن بعض المراهقات والمراهقين يفسرون أن الدين قاس، وهذا غير صحيح. فالدين هو المحبة والتسامح والصدق والاخلاص والعمل كما ذكر المراهق مصطفى وبهاء من مصر. والمناهج مدعوة على الابتعاد عن اسلوب التخويف كما عبرت ثراء من اليمن، أو الترهيب وعذاب القبر منذ مراحل التعليم الاولى للأطفال كما عبرت إحدى المراهقات من البحرين.

وقد عبر عن ذلك سمير من تونس بقولة أن الله قد سمح أن يكون هناك ثلاثة أديان سماوية فلأنه أرادها أن تتعايش فيما بينها لا أن تتقاتل على أساس ديني

5. موقف المراهقين من السياسة: لا للسياسة نعم للعمل الاجتماعي

أما بالنسبة للموقف من الحرب والسياسة والشأن العام فيبدو أن المراهقين المشاركين في الدراسة قد اتخذوا موقفا سلبيا من الممارسة المنظمة للعمل السياسي، على الرغم من حماسهم للعمل الاجتماعي. ويفسر التقرير ذلك بعدم وعي المراهقين لأهمية السياسة أو يشعرون بأن قدرتهم ضعيفة على التاثير. ولدي تفسير اخر وهو أنهم قد أصيبوا بخيبة امل من اداء السياسيين خلال قضايانا القومية. ولم يجدوا هناك نماذج ايجابية يقتدون بها ليحذوا حذوها. غياب النموذج القدوة في حياة مراهقينا الذي يلهب حماسهم، ويدغدغ مشاعرهم، ويؤثر عليهم تأثيرا ايجابيا. فلا عجب إن لجأ بعض المراهقين الصغار الى نماذج متطرفة خاطئة في عالم الرياضة أو السينما أو السياسة.

وأعتقد أنه لا يمكن تعميم ذلك على الشباب والشابات في جميع الدول العربية. ومن خلال اطلاعي على ما يدور على الساحة السياسية في البحرين يبدو ان مراهقي البحرين حالة خاصة فهم على درجة كبيرة من الوعي بأمور السياسة ، ويظهرون الحماس للمشاركة السياسية. نحن في الواقع بحاجة الى تربية سياسية لشبابنا لمساعدتهم على اتخاذ القرار الصحيح، وفهم معنى الديمقراطية والمواطنة الحقيقية عن طريق الممارسة الحقيقة في جو البيت والمدرسة، وتعريف المراهقين بحقوقهم وواجباتهم، ومشاركتهم بالجمعيات والنوادي الطلابية في المدرسة والجامعة، عن طريق التصويت والانتخاب، وهذا هو جزء من هذه التربية السياسية.

6. الموقف من الحرب وقضية فلسطين: التعاطف بالاجماع مع قضية العرب الاولى

وأما بالنسبة للموقف من الحرب فالجميع اتخذوا موقفا بإدانة الحرب ورفضها، والاراء ان كانت قد تباينت في جميع المواقف الاخرى المتعلقة بالسياسة وحقوق المرأة والحجاب والدين إلا أنها اتفقت جميعها على التعاطف والإحساس بالانتماء الى القضية الفلسطينية وسموا نضال الشعب الفلسطيني بأنه مقاومة وليس حربا. وعبروا عن مشاعر قوية جدا بالغضب والاحساس بالظلم والاحباط والعجز، وحماس منقطع النظير عن تأييدهم للشعب الفلسطيني. فكما عبرت نرمين من تونس" ما يحصل في فلسطين يدفع الى الجنون، نشاهد التلفزيون ونرغب في كسره"، وتقول دانة من لبنان " أبكي كثيرا عندما أرى مشاهد المجازر، لو أستطيع أن أقوم بعملية انتحارية فلن أتردد، وتتمنى فدوى من تونس لو تقدم جيشا لشعب فلسطين، أما أخرون مثل شداد من اليمن تمنوا الانضمام لحماس من أجل الجهاد.

في هذه المقابلات دلالات هامة في غاية الخطورة لا بد من أن يأخذها التربويون والسياسيون موضع الجد والاهتمام وهي بمثابة ناقوس الخطر . قد يفسر هذا الكثير من مظاهر التشدد والتطرف التي نلمسها. أليس هو اسلوب للتعبير عن العجز والإحباط والغضب عن الفشل في حل قضية العرب الاولى.

بالاستناد على نظرية التعلم الاجتماعي فأن مراهقينا يشعرون بالتوحد مع النموذج ، وإن العنف الحاصل على أرض فلسطين مع الشعب الفلسطيني يستثير مشاعر لا تقل عن المشاعر التي يعاني منها شعبنا هناك. ولقد قام بعض الباحثين الفلسطينين على رد فعل الصدمات النفسية لدى المراهقين الفلسطينيين فوجد أن الذين شاهدوا العنف يمارس على أهلهم كانوا أشد تضررا وتأثرا من اولئك الذين تعرضوا للعنف نفسه، وأن سياسة القهر والتنكيل والتعذيب تجعلهم أشد ميلا إلى الأفكار الوجودية والاحساس بالعجز واليأس، وأن لا معنى للحياة بوجود القهر والذل والهوان.

وكذلك الأمر بالنسبة لمراهقينا في هذه السن بصورة خاصة، فهم عندما يشاهدون مناظر الذل والهوان والقهر والتنكيل بالشعب الفلسطيني يشعرون بالتوحد مع شبابه، وتتولد لديهم مشاعر الغضب الممزوجة بمشاعر الإحباط والعجز. لذا نراهم يريدون أن يعبروا عن غضبهم بأية وسيلة ممكنة، ولا عجب عن ظهرت بعض الحركات المتطرفة لدى الشباب ودفعهم اليأس إلى الانخراط في نشاطات سياسية للتعبير عن هذه الاحاسيس تعاطفا مع القضية الفلسطينية.

لذا من الضروري في البيت والمدرسة من تخصيص جلسات ارشاد نفسي جماعي وورش عمل نفسية تتاح فيها الفرص للشباب للتعبير عن ارائهم السياسية ،ومشاعرهم الغاضبة، ومساعدتهم في التخلص منها باسلوب صحي سليم، حتى لا تتحول هذه الشحنات الانفعالية السلبية إلى خطر هدام على حياة المراهقين وغيرهم.

7. الموقف من المال والسفر والهجرة: نظرة مثالية للمال وثنائية للوطن

يبدو أن المال لا قيمة له لدى المراهقين في عينة الدراسة ولم يربطونه بالسعادة والنجاح. دهشت من هذه النظرة لأننا نلمس في الجيل الجديد النزعة الاستهلاكية والرغبة في جمع الثروة والغنى السريع في العصر المعلوماتي الحالي. بدليل أن معظم الجامعات الخاصة ومعظم الطلبة في الجامعات الوطنية يتوجهون نحو إدارة الاعمال والاعمال المصرفية والمالية، لتزايد الحاجة اليها وعزوفهم عن المهن الإنسانية كالطب والخدمة النفسية والاجتماعية. وربما يفسر ذلك كون العينة التي من الطبقات الفقيرة والمتوسطة كما ذكر التقرير، ولقد أثبتت بعض الدراسات ان مستوى الطموح منخفض لدى هذه الفئات، وربما كانت من بينها فئات دينية التي لا تعير المال قيمة.وتفسير أخر قد يكون له علاقة بمستوى الإحباط الذي وصل إليه مراهقونا

في العالم الحالي حيث ينظرون إلى المستقبل فيرونه قاتما فهناك مشكلة بطالة على امتداد الوطن العربي من جهة، وهناك وضع سياسي واقتصادي معتم يزيد من أزمة القلق التي يعيشونها، فتجعلهم يزهدون في الدنيا ومافيها، وخاصة الفئات المحرومة.

كما بينت الدراسة أن قلة منهم لم تبد رغبتها بالسفر، واسباب السفر ترتبط باستكمال الدراسة أو بالهجرة والعمل، ولكن تبقى العودة إلى الوطن هي هاجسهم الأول.
وسمى التقرير ذلك بازدواجية النظرة إلى الوطن، فهو الفضاء الذي يهرب منه المراهق، وفي الوقت نفسه هو الملجأ الذي يعود إليه. ويبدو أن ثنائية القول والفعل أي عدم الاتساق بين ما يقوله المراهق وما يفعله، هي سمة المراهقة، أو ربما انعكاسا للازدواجية العامة في المجتمع، أو المناخ السائد في المجتمع الذي لا يتيح هذا الانسجام بين المواقف والسلوك والمفاهيم العامة.

ثم ينهي التقرير في الجزء المتعلق بالاستنتاجات أنه يصعب الجزم بوجود منظومات قيمية متكاملة تجمعها غاية مشتركة، ما عدا القيم الدينية، أما القيم التي تندرج تحت إطار الحداثة في طور التكوين التدريجي في حالات فردية.

ولا ننسى أن استنتاجات الدراسة هي وجهة نظر لفئة قليلة محددة، لا يجوز تعميمها على جميع المراهقات والمراهقين في المجتمع العربي. وأن هناك وجهات نظر أخرى، وأنه لا يمكن أن نصل إلى رأي موحد حول أية قضية من القضايا التي طرحت في التقرير. فلا خلافات بيننا إذا قبلنا هذا الاختلافات.

هذا الاستنتاج يجعلني أتساءل ،هل يا ترى الظروف الصعبة والمناخ السياسي الذي يمر به العالم العربي جعل شبابنا يصاب بالجمود والقنوط ؟ نحن بحاجة إلى دراسات مستقبلية تتوغل في هذا الجانب بالذات وتدرس تأثير هذا المناخ العام بالإحباط والعجز والفشل على سلوكياتهم وبناء شخصياتهم.

أم أننا قد فشلنا في توفير المناخ الملائم لمراهقينا في أساليب تربيتنا لبناء الذات وفرضنا عليهم أساليبنا وعاداتنا وتقاليدنا ليكونوا نسخا مكررة منا، فاصبحوا يرون العالم من خلال عيوننا؟

لنفترض أننا عكسنا الوضعية وحاولنا أن نرى العالم من خلال عيون مراهقينا هل إن الوضع سوف يختلف؟ لن يضيرنا أن نجرب ذلك فقد نرى نتائج أفضل، ولندع الفرصة لمراهقينا أن يخوضوا التجربة الوجودية في رحلة البحث عن الذات، بعد أن نوفر مناخا حرا آمنا لهم، نتيح لهم فرصة التعبير، وتكون علاقتنا معهم قوامها الثقة والمحبة والاحترام المتبادل، ليخرجوا من هذه أزمة الهوية سالمين ظافرين دون ضياع أو تشرد من جهة أو من دون أن يكونوا نسخا جاهزة من ذواتنا عاجزين عن إحداث التغيير والإصلاح المجتمعي المنشود بفكر منفتح جديد.